آثار سلبية للجان العلمية على مسيرة البحث التــربوى !!

دكتور/ سعيد اسماعيل على

بداية لابد من القول بأن الرأى الذى يحمله هذا المقال ، لا يأتى على أنه (نقد) يصدر منى موجه الى طرف آخر ، ذلك أن كاتب هذه السطور يشرف بالمشاركة فى اللجان العلميـــة للترقية الى وظائف الأســـاتذة والأساتذة المساعدين ، وبالتالى فانى أسوقه كصورة من صور النقد الذاتى ، اذ ما دمت فردا فى مجتمع موضوع النقد ، فلابد وأن أشارك فى تحمل مسئولية ما حدث وما يحـــدث ٠

وقد يصدم عنوان المقـــال البعض ، ذلك أن اللجـــان العلمية مهمتها الأساسية : توجيهية ، رقابية ، تنموية ٠

هى توجيهية ، من حيث وضعها الضوابط والمعايير الضرورية للبحث الجيد ، ومن ثم فهى تعين بذلك الباحثين على أن يسلكوا المسلك الصحيح ٠ بل وتحت مظلة هذه المهمة أيضا ، ترشد الى الآفاق البحثية المطلوبة ، فتصرفهم عن تلك الآفاق المستهلكة ، أو ذات القيمة العلمية الضيقة ٠

هى رقابية ، وخاصة عندما تقوم بتقويم ما يقدم لها للحكم على الصالح بصلاحه والحكم على الطالح بسوئه ، بل وأحيانا ــ اذا تيسر لها ذلك ــ ضبط حالات السرقة العلمية ٠

وهى تنموية علمية ومهنية ، باعتبار أنها هى التى تعطى جواز المـــرور لأعضاء هيئة التدريس لأن يكون المدرس استاذا مساعدا والاستاذ المســـاعد أستاذا ٠ وعندما يتقرر ذلك قانونا ، يندفع أعضاء هيئة التدريس الى القيام

بعديد من البحوث والدراسات • ولعل أصدق الأمثلة التى يمكن أن تساق هنا، تلك النماذج التى يمكن الاشارة اليها من البعض الذين يتوقفون عن البحث والدراسة عندما يصلون الى درجة الأستاذية فيتوقف نموهم العلمى ، اذ لا يفصلون بين النمو الوظيفى والنمو العلمى ، فالنمو الوظيفى له (نهـــاية عظمى) ، أو (سقف) ، أما النمو العلمى فلا نهاية عظمى له ولا سقف •• انه حقا : من المهد الى اللحد •

لكن هذا الوجه المنير للقمر لا ينبغى أن يحجب عنا وجهه الآخر (المظلم)، ولا غرابة فى ذلك ، فأعظم الأدوية لها آثارها الجانبية غير الطيبة ، والعــلم نفسه أداة التغيير والتطوير لحياة الانسان الى ما تجاوز كافة الأحلام ، كم له من الآثار السلبية المدمرة !!

وأول ما يستوقفنا هنا ، هو ذلك الشيوع المرضى (بفتح الميم والراء) لشكليات البحث العلمى ، بافتعال واضح ، وأكاد أقول ، بتزييف فاضح !!

فلأن اللجنة العلمية تشترط للترقية القيام ببحوث علمية جديدة ، كــان لابد لها من أن تحدد الملامح المنهجية للبحث من حيث تحديد المشكلة ، وفرض الفروض ، وتحديد المصطلحات وتعيين المنهج المتبع •• الخ ، نجد موضوعات، هى بحكم طبيعتها لا تتحمل هذا ، لكن ، لابد من الافتعال حتى يعد العمــــل (بحثا) • وعلى سبيل المثال ، اذا كتب عضو عن (طبيعة الانســـان فى الفلسفة البراجماتية) فما المشكلة هنا ؟ الحق أنه لا مشكلة !! واذا كتب آخر عن التربية السياسية عند أفلاطون أو غيره من الفلاسفة قدماء أو محدثين ، فلا مشكلة هنا أيضا ، لكن الباحث (يلوى ذراع الكلام) ، وما عليه الا أن يدخل أداة استفهام على الجملة التقريرية لتجعل مشكلة حيث لا مشـــكلة ، كأنه يتساءل :

ما طبيعة الانسان فى الفلسفة البرجماتية ؟ أو
ما معــالم التربية السياسية عند أفلاطون ؟

ثم لابد أن يزيد الطين بلة ، اذ لابد لهذا التساؤل (المفتعل) أن يكون رئيسيا ، تتفرع عنه أسئلة فرعية لا تقل عنه افتعالا •• وهكذا •

اننى أفهم أن تكون هناك مشكلة اجراءات تنفيذية لمحو الأمية ـ مثلا ـ أو مشكلة تغيير سلوكى معين لدى المواطن ، أما افتراض أن البحث عن مفهوم معين أو اتجاه ما فى فلسفة تربوية أو عند مفكر تربوى يشكل مشكلة ، فهذا افتعـال واضح .

ويبدو أنه لابد من التفكير فى حكاية (المشكلة) هذه ...

فمن المعروف أن فكرنا التربوى فى معظمه قد (رضع) و (تغذى) و (نما) من الفلسفة البراجماتية ، وكانت مقولة جون ديوى ، زعيمها المعروف ، ان الانسان لا يستطيع أن يمارس التفكير الا اذا كانت هناك (مشكلة) . وشرح المشكلة بأنها غموض يكتنف عناصر موقف ما بحيث يحجب الرؤية عن الانسان لما قد يكون هناك من علاقة بين (فكرة) وما يترتب عليها من نتائج عملية .

فهل آن الأوان لمراجعة هذا المعنى البراجماتى ؟ اننى لا أدعو الى تخطئته، فهو صحيح ، وانما أدعو الى عدم الوقوف عند حده ، فهناك جوانب أخرى لمعنى المشكلة ، وليس ضروريا أن تكون هناك مشكلة كى يمارس الانســـان التفكير ، فالتفكير بالنسبة للعقل الانسانى ، كالتنفس ، لابد أن يمارسه ، أراد أم لم يـرد .

اننا كثيرا ما نقرأ تحت عنوان (مشكلة البحث) تساؤلات تثير السخرية والاشفاق حقا ، حتى انه ليس غريبا أن تجد تساؤلات مثل :

- هل التفكك الأسرى يؤثر سلبا على التحصيل الدراسى للابناء ؟
- ما النمو الكمى لطـــلاب الحلقــة الأولى من التعليم الأساسى فى محافظة ... ؟ الى غير ذلك من تساؤلات (مزيفة) حقا !!

ويرتبط بهذا أيضا حكاية (النظرى) و (الميدانى) و (التجريبى) ، اذ يكاد يستقر فى أذهان عدد غير قليل من الزملاء أن الدراسة لا تكون (بحثا) الا اذا كانت ميدانية أو تجريبية ، وهذا ليس صحيحا دائما ، فاذا قام باحث بدراسة لتطوير منهج المنطق ـ مثلا ـ فى التعليم الثانوى المصرى ، فقد يقع تحت طائلة هذه الفكرة الشائعة فيخسر القضية ، فلا استبيان هنا ولا تجـــريب ،

ولا معادلات احصائية وجداول تدخل فى روع القارىء انه أمام عمل علمى من الدرجة الأولى ، بينما دراسة موضوع مثل هذا ، اذا أحسن الاستناد فيها الى المصادر الأصلية وتناوله الباحث بمهارة تبين تحليلا متعمقا ، فلابد أن يعـــد بحثا ٠

واذا قام باحث بدراسة لاتجاه البحث النفسى فى مصر ازاء قضـــية معينة من خلال تحليل للبحوث والدراسات المصرية ، فلربما قفز واحد ليحكم بأن هذا (جهد مشكور) أو (دراسة نظرية) !!

وفى يقيننا أن البحث النظرى ، أحيانا ما يكون له اسهامه الملموس فى تقدم المعرفة العلمية ، طبعا وفق شروط دقيقة لابد من توافرها بحيث لا يكون مجرد (تجميع) للمادة العلمية المتعلقة بالموضوع فى عدد من المصادر بصورة تسجيلية ٠

ومن المحتمل جدا أن يحمل (مقال) تعد صفحاته على أصابع اليد ، فكرة غير مسبوقة ، لكنه ــ وفق المعايير السائدة ــ لا يعد بحثا ، وتهدر قيمته ، مع أن ذلك ــ من وجهة نظرنا ــ يمكن أن يفوق فى قيمته العلمية عشرات الأبحاث الميدانية والتجريبية التى تستطيع أن تعرف نتيجتها قبل أن تقرأها ، حتى ليتساءل المرء : وما جدوى هذه النوعية من البحوث ؟ الا اذا كانت المسألة مجرد (تدريب) على آليات البحث العلمى ؟

وقد يبادر البعض الى القول بأن أحكامى (الاحتمالية غير المرجحة) هذه انما تصور الحال فقط فى مجال (أصول التربية) باعتباره المجال الذى أنتسب اليه ، وأبادر الى القول بأن (دراسات تربوية) قد أتاحت لى فرصة (اجبارية) للاطلاع على عشرات البحوث فى المجالات الأخرى مما أتاح لى أن أقول هذا الذى أقوله فى هذا المقال ٠

ثم نأتى الى قضية هامة قد تحتاج وحدها الى مقال مستقل ، الا وهى الأعمال المترجمة ٠

فمن قواعد الترقية - بكل أسف - ألا (تحسب) الكتب والدراسات المترجمة من لغات أجنبية الى اللغة العربية ، وفى ذلك ظلم فاحش ٠

فهناك لغات لا تشيع بيننا نحن المشتغلين بالعلوم والدراسات التربوية والنفسية ، ومن ثم فان من ينقل لنا منها عملا علميا تربويا الى العربية ، فانه يقدم بذلك خدمة جليلة الى البحث التربوى العربى ، ولابد أن يحسب له ، فماذا لو ترجم لنا عمل علمى عن اللغة اليابانية ؟ أو الصينية ؟ بل ومن الايطالية والروسية والأسبانية والألمانية ؟

ان هذا الازورار من اللجان العلمية عن الأعمال المترجمة قد لعب دورا مؤسفا فى فتور همم المترجمين ، اذ وجدنا كثيرا من الباحثين يقولون : لماذا أبذل جهدا مضنيا يستغرق شهورا فى عمل لن يحسب لى ؟ حتى ليشعر الانسان بالأسى اذا قارن بين حركة الترجمة الآن وما كانت عليه منذ خمسين عاما - مثلا) !! ان البعض ربما يدعى أنها كانت مزدهرة لقلة الأعمال العربية وقلت الآن ، لكثرة الجهد العربى ، وأخشى أن اقول : ان كثيرا مما هو مكتوب الآن باللغة العربية ليس جهدا عربيا (فى التأليف) !!

اننا اذ نذكر بعض الأعمال المترجمة لروادنا الكبار مثل محمد عبد الهادى أبو ريدة فى (تاريخ الفلسفة فى الاسلام) ، وعثمان أمين فى (مقال فى المنهج لديكارت) - مثلا - وغيرهما كثيرون ، نذكر أن تلك الأعمال لم تكن مجرد نقل من اللغة الأجنبية الى العربية ، فهناك شروح وتعليقات وتصويبات واضافات ، والكتاب الأول المشار اليه تبلغ هوامشه ما يقرب من ضعف متن الأصل الاجنبى ٠٠ لم يكن مترجمونا (سعاة بريد) بل كانوا مفكرين حقا ٠

٠٠ تلك هى مجرد (عينة) للآثار السلبية للجان العلمية ، وهناك غيرها بطبيعة الحال ، وربما نعود اليه مرة قادمة ٠